



طبيب من بابا عمرو دفع ربع مليون ليرة مقابل ساعة من الزمن يمارس مهنته في علاج مصابي الثورة في المستشفى الإسلامي في الأردن

في آخر أيامه في بابا عمرو، خلع أحمد الترقاوي، قميصه الرياضي واستخدمه كعصابة. وفي مستشفاه الميداني الكائن في مدينة حمص التي لحق بها الدمار، حيث لا يوجد دواء أو تجهيزات. يقول: «كنا نجري عمليات جراحية من دون تخدير».

اليوم، بات بابا عمرو حي أشباح واختفى منه مستشفى أحمد، وأيضا منزله، وتسببت جهوده في حمص في جعله على قائمة المطلوبين لدى النظام السوري. قبل ستة أشهر، وبعد علمه أن قوات الأمن تضيق الخناق، دفع لمسؤول حكومي رشاوة قيمتها 250 ألف ليرة مقابل إزالة اسمه من قائمة المراقبة لمدة ساعة. وكانت تلك بمثابة فرصة للهرب إلى الأردن.

يتذكر ما حدث قائلا: «حتى وقتما كنت أعبر الحدود، كنت أتساءل عما إذا كان بمقدورني الوثوق فيه». وأضاف: «لكن، ما الإجراء الآخر الذي كان بإمكانني اتخاذه؟».

التقيت الدكتور أحمد في مقر عمله الجديد، وهو مكتب مكتظ في المستشفى الإسلامي في عمان. تحدثنا بشكل متقطع؛ ففي كل دقيقة، كان يأتي مريض جديد يعرض وصفة طبية طالبا توقيعها، ويرن هاتفه دون انقطاع.

يعتبر أحد طبيبين في جناح أنسائه منظمة الصليب الأحمر القطرية من أجل علاج السوريين المصابين في الحرب الأهلية. يوجد أكثر من ستين مريضا هنا، معظمهم مصابون بجروح جراء شظايا قنابل، أما الآخرون، فيعتبرون ضحايا مستهدفين لقناصة من النظام. قد يكون الدكتور أحمد قد غادر سوريا، لكنه ما زال يمد يد العون للمصابين هنا في عمان. وبينما يرن هاتفه مجددا، يحثني عن الحديث إلى الرجل الجالس على يميني. يبدو بسام حمزة في صحة جيدة ومبتهجا، لكن ساقه اليمني تصدر صوتا يبدو وكأنه صادر عن تجويف عندما يضغط عليها.

يحكى لي: «كنت قائدا لكتيبة (كعب الأحبار) في حمص، لدينا 62 مقاتلا، جميعهم من باب دراب، وفي كل ساعة يوميا، نشن هجمات على ضباط النظام، لديهم دبابات وقدائف هاون وطائرات مقاتلة، ونحن لا نملك سوى بنادق كلاشنكوف وقدائف (آر بي جي)، لكنهم يتفادون مواجهتنا على الأرض. إنهم جبناء».

في الخريف الماضي، كان بسام حمزة في الخط الأمامي بكتيبيته، التي تتقى صوب منطقة حمص التي يسيطر عليها النظام. فاجئوا ثلاثة من قوات النظام وحدث تبادل لإطلاق النار بين الجانبين.

ويقول: «تعرضت لإصابة في ساق أربع مرات. واصلت القتال لمدة عشر دقائق بعد إطلاق النار علي، ثم ازداد النزيف بصورة هائلة وكان لزاماً علي أن أتوقف في البداية، ظنت أنه مجرد جرح معتاد، لكن بعد ثلاثة أيام، كانت درجة حراري زالت مرتفعة وكنتأشعر بألم حاد».

وفي ظل عدم وجود مكان يمكنه اللجوء إليه لتلقي العلاج في حمص، كان من اللازم تهريبه للخارج. ويضيف: «استغرق الأمر ستة أيام، وكان علي الهرب عبر أنفاق، كنتأشعر بألم، لكنني لم أكن خائفاً. حملت بندقية وقدنفة خشية أن تعرضاً أي من قوات النظام».

استطاع حمزة الخروج من سوريا، ثم تم تحويله إلى المستشفى الكائن في عمان، لكن إصابة قدمه كانت مروعة. بعد قرابة شهرين من تبادل إطلاق النار، تم بتر ساقه من عند الفخذ، لكنه يتسم ويخبرني أنه يشعر بأنه محظوظ. «لم أفقد ساقاً، البعض يضحيون بحياتهم، ربما احتاج إلى عام كي أتمكن من السير بشكل طبيعي مجدداً، لكن هذا هو ثمن الحرية».

يعتبر حمزة واحداً من بين عشرات الشباب ممن فقدوا أطرافهم أو بصرهم أو قدرتهم على الحركة فداءً للثورة ويخضعون لعناية الدكتور أحمد، بينما انتهى من نوبة عمله في المستشفى، رافقني الدكتور أحمد في رحلة بالسيارة الأجرة مدتها عشر دقائق إلى مركز الفرسان، وهو منزل كائن في غرب عمان استخدمه هو وفريق من المتطوعين كمركز إعادة تأهيل للمقاتلين المصابين من صفوف الجيش السوري الحر.

إنها عملية تعتمد على تمويل محدود. جميع أفراد فريق العمل متقطعون، ويتم سداد جميع التكاليف عبر تبرعات من قطر والكويت وال السعودية.

خلف واجهة المبني، يتداول المرضى الضحكات مع أطبائهم وهم يتغدون في خطواتهم من الأسرة إلى أجهزة العلاج الطبيعي.

يقول الدكتور أحمد: «أحب الثورة وأحب أصدقائي هنا، أجدهي محاطاً بكل منهما». لعل روح الدعاية هذه غريبة مع شدة الإصابات التي يعاني منها المرضى، أصيب موسى، 21 عاماً، المنشق عن الجيش النظامى، بشظايا في الماغ على خلفية قتاله إلى جانب رفقاء الجدد في الجيش السوري الحر في مدينة درعا السورية. عندما جاء إلى المركز، كان قد أصيب بالشلل، لكنه تحدث بفخر عن قدرته الآن على الوقوف والمشي بنفسه. وهناك شخص يدعى أدهم، من حمص، أصيب بعيار ناري في الرقبة واخترقت الرصاصة رئته والحلب الشوكي. وعنه يقول الدكتور أحمد المعنى بحاليه قائلاً: «لقد استثرت مشاعره؛ فأبلغته بأنه عندما يتعافي، ستدفعه معاً إلى حمص لنواصل الجهاد من أجل الثورة، هذا الأمر كان مصدر إلهامه، عندما جاء إلى هنا قبل عام، لم يكن قادرًا على الحركة على الإطلاق. والآن يستطيع أن يمشي على قدميه».

ولكن الرجل الممدود على السرير المجاور لا يتحرك مثل الآخرين، كان مالك (ليس اسمه الحقيقي) لواء في الجيش النظامي، عندما أمر مثل الكثير من زملائه بقتل المتظاهرين في بداية الانتفاضة، عصى الأوامر واكتفى بإطلاق النار فوق رؤوسهم في الهواء، ويقول «لو قبضوا علي، لقتلوني». عندما جاءت فرصة ترك منصبه وانضم إلى الثوار، ولكن لم تمض سوى بضعة أشهر حتى أصيب بطلق ناري في عموده الفقري، وقد أخبرني الدكتور أحمد «أنه أصبح عاجزاً تماماً». ولا يزال حلم مالك، مثل أي شخص آخر قابلته، هو العودة إلى سوريا والانضمام إلى الثورة مرة أخرى.

وفي الغرفة المجاورة، هناك شاب دمشقي يدعى مهند يدفع نفسه أمام سخان كهربائي. أصيب منذ شهرين برصاص قناصة بينما كان يقدم بنادق وذخيرة للجيش السوري الحر أصابت الطلقة يده اليسرى، مما تسبب في تلف حاد بالأعصاب

والعظام، وقد أخبرني قائلا: «كنت أساعد الثوار فقط، ولم أنضم إليهم»، مضيفا: «لكن عندما أعود إلى دمشق، سوف أحمل السلاح وأقاتل معهم».

إن بسام حمزة أيضا، على يقين تام من أنه سيقاتل مرة أخرى، «هذه هي المرة السابعة التي أصبت فيها». تعرضت ذات مرة لإصابة تحت قلبي بمسافة سنتيمتر واحد، وأعلن النظام وقتها أنني لقيت حتفي، لكنني استرحت فقط لمدة ثلاثة أيام، ثم واصلت القتال، أتحدث إلى سريتي عبر «سكايب» يوميا، إنني أفتقدتهم كثيرا. سوف أحارب معهم مرة أخرى.

الشرق الأوسط

المصادر: